

## جغرافيا عالم الإسلام في فكر ابن خلدون

■ إلياس بلكا ■

يوجد إفراط كبير في دراسة جهود ابن خلدون في علم التاريخ، ثم بدرجات أقل في الاقتصاد والسكان، بالمقابل نلاحظ تفريطاً في البحث عن عطاء هذا العالم الفذ في الجغرافيا، فهو محدود جداً، لذلك يدعو هنري شاموسي مثلاً إلى الاهتمام بابن خلدون جغرافياً، معتبراً أنه «من غير الممكن اليوم أن يقلل جغرافي مهتم بتاريخ الفكر من أهمية هذا المفكر الكبير»، ومذكراً بأن لأكوست - عالم الجغرافيا السياسية وأستاذها الكبير بفرنسا - هو الذي قدّم ابن خلدون للجغرافيين الأوروبيين في هذا العصر<sup>1</sup>. وهذا المقال يحاول أن يستجلي بعض ما أسهم به ابن

Henri Chamussy: IBN KHALDÛN. Article in: Hypergeo - 1

■ أستاذ الدراسات الإسلامية بمعهد دراسات العالم الإسلامي بجامعة زايد بدبي.

خلدون في حقل الجغرافيا، مع العلم أنه لا يغني عن دراسة أكاديمية متخصصة في الموضوع.

### الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي وخصائصه:

تعود أهمية الجغرافيا بالنسبة للعالم الإسلامي إلى ثلاثة عوامل:

**الأول:** هو اتساع رقعة هذا العالم، بحيث كاد يشكل في زمن ابن خلدون - أعني قبل اكتشاف الأمريكيتين - نصف العالم المعروف آنذاك، واليوم لا يزال يشكل العالم الإسلامي حوالي ربع مساحة اليابسة في العالم<sup>1</sup>.

**والثاني:** هو أن عالمنا الإسلامي يقع ضمن منطقة تعدّ - بصفة عامة، وفي الحساب النهائي - معتدلة المناخ. يقول الخفاف: «إن هذا الامتداد للعالم الإسلامي يقربه بأنه عالم شرقي، وهو في معظم رقعته الرئيسية ضمن المنطقة المدارية الدفيئة... يقع فوق هذه الصحارى الواسعة التي تشغل القسم الشمالي في إفريقيا وجنوب غربي آسيا وأواسطها»<sup>2</sup>.

**والعامل الثالث:** هو الموقع الاستراتيجي الذي تحتله بلاد الإسلام في الأرض، وهو موقع كان بلا شك أكثر أهمية قبل الكشف الجغرافية الحديثة، ورغم ذلك لا يزال العالم الإسلامي يحتفظ بمكانة جيوسياسية مميزة، وذلك كما يقول الخفاف: يقع «العالم الإسلامي في موقع جغرافي يشغل القلب من «قلب العالم»، فهو الجسر الأرضي الذي يربط قارة آسيا بإفريقيا ويقترب كثيراً من قارة أوروبا عبر شبه جزيرة

1- جغرافية العالم الإسلامي، عبد علي الخفاف، دار الشروق، عمان، ط1، 1998. ص29.

2- جغرافية العالم الإسلامي، عبد علي الخفاف، ص11.

الأناضول وعبر بلاد المغرب العربي. ويربط ما بين مياه البحر الأسود والبحر المتوسط مع مياه البحر الأحمر والبحر العربي والخليج العربي التي تفتح على المحيط الهندي»<sup>1</sup>. ولعل أفكار زييغينو بريجنسكي التي بسطها في كتابه «رقعة الشطرنج الكبرى» من أحدث ما يؤكد هذه الأهمية الاستثنائية في الدراسات الجيوسياسية المعاصرة<sup>2</sup>.

### التأليف الجغرافي عند المسلمين

تنوعت التأليف الجغرافية عند المسلمين، فكتبوا في «علم الأطوال والعروض»، أو «علم التقويم»، وقد استحدثوا هذه الخطوط الوهمية - خطوط الطول والعرض - لتحديد المواقع الجغرافية للمدن والمناطق. وكتبوا في «علم المسالك والممالك»، حيث كان القصد أساساً وصف طرق المواصلات. وكتبوا «علم الأقاليم أو البلدان» في وصف مناطق معينة كجزيرة العرب، وبلاد فارس، والأندلس ونحوها. أما الجغرافية الفلكية فتدخل عندهم في علم الهيئة.

وأقرب المصطلحات أو الفروع الجغرافية لعلمائنا من جغرافيا اليوم هو: صورة الأرض، وهو عنوان أحد أهم كتب الجغرافية العربية، وهو ثمرة عمل جماعي لعشرات الجغرافيين، أشرف عليهم الخوارزمي، فاشتهر الكتاب باسمه. والخوارزمي - في تراثنا - هو الذي قسّم العالم على سبعة أقاليم، بحسب درجات العرض، وبدأ هذه الأقاليم من الجنوب إلى الشمال.

1- جغرافية العالم الإسلامي، عبد علي الخفاف، ص13. خاصة في حديثه عن مفهوم أوراسيا، ومنطقة البلقان الأوراسية.

Zbigniew Brzezinski: Le Grand

2- راجع: Echiquier. Hachette, Paris, 1977.

لكن الجغرافيين المسلمين لم يأخذوا بتقسيم واحد للأقاليم، فالإصطخري مثلاً قسم العالم الإسلامي إلى عشرين إقليمًا، ويراعي في ذلك الطبيعة الجغرافية لكل إقليم. بينما قسّم ابن حوقل هذا العالم إلى اثنين وعشرين إقليمًا، مراعيًا في ذلك أيضاً التقسيم السياسي والإداري. فلما جاء المقدسي قسم الأرض إلى سبعة أقاليم للعرب، وثمانية للعجم، وهو تقسيم إداري.

ثم رجع التقسيم الجغرافي للمسلمين مع الشريف الإدريسي إلى الأقاليم الفلكية السبعة، وهو الذي أخذ به ابن خلدون في المقدمة<sup>1</sup>.

### أسباب اهتمام المسلمين بالجغرافيا

وهنا يثور سؤال: ما سر اهتمام المسلمين بالجغرافيا على اختلاف أنواعها وفروعها، لدرجة أن العالم لم يعرف حضارة إنسانية كتبت في الجغرافيا أكثر مما كتب المسلمون؛ بل ولا نصف ما كتبوا، إلا في العصر الحديث؛ حين استفادت أوروبا من هذا التراث الجغرافي الإسلامي في مفامرتها الكبرى في اكتشاف العالم. ويمكن إجمال عوامل ظهور الجغرافيا عند المسلمين فيما يلي:

– القرآن الكريم، ففيه إلهام على النظر في السماوات والأفلاك والكواكب، وحث على السير في الأرض واستكشافها وإعمارها.

1- المقدمة، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون. تصحيح وفهرسة أبي عبد الله السعيد المندوه. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط4، 1426، 2005. المقدمة الثانية في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من الأشجار والأنهار والأقاليم، في الكلام عن الأقاليم السبعة، ص49، 56 فما بعدها.

- حديث الإسلام عن السفر والسياحة في الأرض؛ فقد وصف الله تعالى عباده المؤمنين بـ ﴿ \$ ﴾ في [سورة التوبة، آية 112]. كما وصف المؤمنين بـ ﴿ § ﴾ في [التحريم 5]. وقال أيضاً: ﴿ 4 5 6 7 8 9 ; : > = < @ A B ﴾ [الملك 15]... وهذا التشجيع على السير في الأرض واضح مثلاً من قصص بعض الأنبياء وذي القرنين، لذلك ظهر في تراثنا عدد ضخم من الرحلات المدونة، وبمناهج متنوعة، ناهيك عن غير المدون.

- الفتوحات الإسلامية ونتائجها، فقد اقتضت من المسلمين معرفة الأرض التي يقصدونها جيداً، ثم بعد فتحها ازدادت الحاجة لهذه المعرفة وأن تكون دقيقة وشاملة لأغراض إدارة المناطق، وجباية الأموال، وتحصيل الضرائب، وابتعاث العمال والولادة، ووضع الحاميات، وتنظيم مواسم التجارة وتأمين طرقها.

- فريضة الحج التي تلزم كل مسلم أن يسافر إلى مكة بمجرد الاستطاعة، فقد شجعت هذه الفريضة على تطور الجغرافيا عند المسلمين - علماء وممارسة - بجعلها وسيلة لا غنى عنها لأداء عبادة عظيمة هي أحد الأركان الخمسة للإسلام.

- انتشار مفهوم الرحلة في طلب العلم، وهو المفهوم الذي جسده أهل الحديث النبوي أفضل تجسيد، مع أن غيرهم من علماء الدين والأدب واللغة وعلوم الطبيعة أخذوا به أيضاً<sup>1</sup>.

1- اقرأ: الفصل الحادي والأربعين: في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم. المقدمة، ص242.

- الفضول العلمي والرغبة في معرفة الآخر؛ فمثلاً يُرجع الأستاذ الدفاع تفوق المسلمين في الجغرافيا إلى دخولهم الصين وإفريقيا دون الرومان<sup>1</sup>.

فهذا وغيره أدى إلى تأسيس علوم الجغرافيا تأسيساً جديداً في الإسلام، ونموها بدرجة غير مسبوقة في التاريخ.

### الجغرافيا في حياة ابن خلدون ورحلاته

لعل بُعد بلاد المغرب عن المشرق، مع وجود صلات سياسية ودينية وتجارية أسهم في الاهتمام المغربي بالجغرافيا، ولعل ابن بطوطة - المعاصر لابن خلدون والذي أثنى عليه - نموذج لذلك.

وقد نشأ ابن خلدون في هذه البيئة المغربية المتطلعة للشرق، ونستنتج من تأمل حياته أنه كان كثير السفر، لذلك كانت خبرته بشمال إفريقيا واسعة، وهي خبرة متنوعة تتناول السكان والأرض والجغرافيا، فاطلاع ابن خلدون على الجغرافيا لم يكن عن طريق الكتب فقط، بل هو اطلاع مباشر على جزء كبير من العالم المتحضر آنذاك، وهذا ما أكسبه وعياً متقدماً بالجغرافيا وآثارها على الوجود البشري<sup>2</sup>. لذلك يقول كراتشكوفسكي: «إن ابن خلدون إنما يمثل من ناحية أصله وسيرة حياته مزيجاً طريفاً لحضارة ذلك العصر»<sup>3</sup>.

1- رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، لعلي بن عبد الله الدفاع، مكتبة التوبة بالسعودية، ط2، 1993. ص45.

2- وانظر للتعرف باختصار على رحلات ابن خلدون بالصور والرسومات كتاب: مع ابن خلدون.. في رحلته، إعداد خالد عزب ومحمد السيد، نشر مكتبة الإسكندرية، 2006.

3- تاريخ الأدب الجغرافي، لإغناطيوس كراتشكوفسكي. نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم. لجنة النشر والتأليف، القاهرة، 1963، ص439.

وقد حفظ لنا ابن خلدون بنفسه تفاصيل هذه الرحلات والأسفار في سيرته الذاتية الفريدة من نوعها، والمعروفة بـ«رحلة ابن خلدون شرقاً وغرباً»، فهي ليست كتاباً جغرافياً؛ بل هي ترجمة كتبها المؤلف بنفسه، وعرض فيها لحياته وأهم أطوارها. لذلك يقول كراتشكوفسكي: «الأراء الجغرافية لابن خلدون يجب استجلاؤها لا اعتماداً على الرحلة؛ بل من مؤلفه التاريخي الضخم»<sup>1</sup>. لكن هذه السيرة تبين لنا الخلفية الجغرافية العملية لابن خلدون بوصف أسفاره ورحلاته.

لقد نشأ ابن خلدون بتونس، وهي منطقة تحتل الوسط في شمال إفريقيا، وهذا عامل مهم في تسهيل حركة ابن خلدون شرقاً وغرباً، ثم رحل إلى فاس وعاش بها فترة، ثم غادر إلى الأندلس ورأى آثار أجداده بني خلدون بأشبيلية. بعدها عاد إلى بجاية، فبسكرة، وكلاهما بالمغرب الوسط. وبعد سنين طويلة من السفر والعمل السياسي اعتزل ابن خلدون بقلعة سلامة غربي تونس مدة أربع سنين، وفيها كتب موسوعته التاريخية بمقدمتها المشهورة.

وتمثل هذه المرحلة خبرة ابن خلدون المتنوعة والعميقة بمنطقة الغرب الإسلامي.

أما المرحلة الثانية فهي هجرته إلى مصر، وتقلبه في القاهرة بين التدريس وممارسة القضاء. ومن مصر حجّ وزار الحجاز، كما تسنى له الذهاب إلى الشام والقدس. وتدلُّ حياة ابن خلدون نفسه على أن الجغرافيا الثقافية والعاطفية والإنسانية للعالم الإسلامي ظلَّت واحدة، رغم انقسام جغرافيته السياسية. لذلك أمكن لابن خلدون وغيره أن

1- تاريخ الأدب الجغرافي، ص441.

ينتقل بكل سهولة ويسر من المغرب والأندلس غرباً إلى مصر والشام شرقاً، وأن يعيش في جميع هذه المناطق رداً من الزمن.

## الجغرافيا في المقدمة

تتوزع المادة الجغرافية في المقدمة على مواضع متعددة، كالمقدمات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة. وإذا كان الفصل السادس من المقدمة خاصاً بالعلوم، فإن ابن خلدون لم يذكر منها الجغرافيا، وإن ذكر أحد فروع ما يسمى بالجغرافيا الفلكية في الحديث عن علم الهيئة<sup>1</sup>. لكن هذا لا يدل على عدم اعترافه بعلم الجغرافيا؛ لأن المؤلف لم يقصد حصر جميع العلوم، لذلك لم يذكر حتى علم العمران الذي اكتشفه.

وقد تحدث ابن خلدون في المقدمات الأولى عما يسمى في جغرافية اليوم بـ«الموقع الفلكي» للعالم الإسلامي<sup>2</sup>، ثم في تكملة المقدمة الثانية وصف الأقاليم السبعة إقليمياً إقليمياً، وذكر أبرز ما في كل إقليم من الشعوب والقبائل والجزر والجبال والبحار والأنهار ثم أوضح بأن الأقاليم الوسطى من الأرض هي التي تعرف تطوراً حضارياً في التاريخ لاعتدال مناخها، لذلك فأصحاب الحضارة في هذه الأقاليم المعتدلة هم - عند ابن خلدون - أساساً عالم الإسلام، والروم، والهند، والصين<sup>3</sup>. فهذه هي التكتلات الحضارية والتاريخية الكبرى، حيث تقع بلاد الإسلام في أوسطها، لذلك كان ابن خلدون واعياً بالموقع الاستراتيجي لهذا العالم.

1- المقدمة، ص184.

2- راجع في هذا المفهوم الجغرافي: جغرافية العالم الإسلامي، عبد علي الخفاف، ص9.

3- المقدمة الثالثة، ص89، 91.



وقد وصف ابن خلدون جغرافيا العالم باختصار، ثم قال منتهياً: «عنايتنا في الأكثر إنما هي بالمغرب الذي هو وطن البربر، وبالأوطان التي للعرب من المشرق»<sup>1</sup>، فكأنه حصر الجغرافيا التي يهتم بها من بلاد العراق شرقاً إلى المغرب الأقصى غرباً، وهذه - على وجه التقريب - جغرافيا العالم العربي.

المعمور من هذا  
المنكشف من الأرض  
إنما هو وسطه لإفراط  
الحر في الجنوب منه  
والبرد في الشمال

أما في كتاب التاريخ فإن ابن خلدون وَّزَع مادته توزيعاً لا يتبع الترتيب الزمني، حولياً أو غيره، بل بحسب الدول الحاكمة بكل قطر، وهذا توزيع يراعي الجغرافيا قبل التاريخ الزمني.

### مصادره الجغرافية

اعتمد ابن خلدون على جغرافيين كثيرين، وذكر منهم بالاسم بطليموس في كتابه «الجغرافيا»، والإدريسي الذي يصفه بـ«صاحب كتاب روجار»<sup>2</sup>، لكن أحياناً تكون معلومات ابن خلدون أكثر تفصيلاً من الإدريسي، كمعلوماته عن جزر المحيط الأطلسي أو أعماق إفريقيا<sup>3</sup>. وأهمية جغرافيا الإدريسي تكمن في أنها الأكمل والأتم في ذلك العهد. فقد ضمّن كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» سبعين خريطة، حيث قسم كل إقليم إلى عشرة أقسام رأسية، لكل قسم خريطة. وقد جمعها المستشرق الألماني مولر، وكونّ منها خريطة واحدة مساحتها حوالي مترين مربعين. وهذه أصح خرائط

1- المقدمة الثانية، ص52.

2- المقدمة، المقدمة الثانية، ص49، ص56، ص57.

3- تاريخ الأدب الجغرافي، ص443.

العالم في التاريخ إلى حدود العصر الحديث، وهي خرائط وضعها الإدريسي على أساس كروية الأرض.

## الجغرافيا والتاريخ: النظرية الخلدونية في أثر البيئة في العمران والدول

كتب ابن خلدون تكملة للمقدمة الثانية يشرح فيها لماذا كان الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي، وعلل ذلك باعتدال المناخ في هذه المنطقة<sup>1</sup>. يقول ابن خلدون: «المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال»<sup>2</sup>، لذلك كان أهل أقاليم هذا الوسط هم أصحاب الحضارة والتاريخ، وفيهم الأديان والآداب والصنائع... وكذلك الذين يجاورونهم، فهم يقاربونهم في الاعتدال والتحضر. أما «من سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً، فالدين مجهول عندهم، والعلم مفقود بينهم، وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناسي، قريبة من أحوال البهائم، ﴿ 987 ﴾: ﴿3».

ويرى ابن خلدون أن الحضارات الأساسية في هذه الأقاليم المعتدلة هي حضارات الإسلام، والروم، والهند، والصين<sup>4</sup>، وهنا تقع أوطان العرب في وسطها، فجغرافيا البلاد العربية/الإسلامية هي وسط الوسط؛ يقول الخفاف: «المعروف أن علماء التاريخ القديم والآثار يشيرون إلى أن وطننا العربي - وهو قلب العالم الإسلامي - بأنه مهد الحضارات...

1- المقدمة، ص53.

2- المقدمة، الثالثة، ص88.

3- المقدمة الثالثة، ص89. والآية 8 من سورة النحل.

4- المقدمة الثالثة، ص89، 91.

فقد عرف الكتابة وبدايات التاريخ المدون وكذلك المستوطنات الأولى التي زرعت واستأنست الكثير من النباتات والحيوانات، و اخترعت العجلة، كما كانت هذه البقعة هي موطن الأديان الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام<sup>1</sup>.

وهذا النظر في العلاقة بين الحضارة والبيئة نظر متقدم جداً، قلّمَا أشار إليه أحد، ولا نقلى في التراث الأوروبي مثل هذا التحليل إلا لاحقاً مع مونتيسكيو في روح القوانين، يقول ملكاوي: «يذهب بعض الدارسين لابن خلدون - ومنهم محقق المقدمة علي عبد الواحد وافي - إلى ابن خلدون يقول بحتمية أثر البيئة على الأداء الحضاري للشعوب، ويجمعه في هذا مع «مونتيسكيو... لكن المتأمل في عبارات ابن خلدون في هذا المجال يجد أن ابن خلدون - في الوقت الذي يقرر أثر العوامل المناخية والظروف البيئية على خصائص الشعوب، ومظاهر التطور والتقدم في جوانب العمران البشري - لا يقول بحتمية هذا الأثر، بدليل أن إشاراتِهِ إلى طبيعة العمران في الأقاليم هي في الأساس وصف لما هو كائن في حدود ما وصل إليه من علم عن حقيقة ذلك العمران «بالمشاهدة والأخبار المتواترة...»؛ ذلك أن «العمران متدرج ويأخذ في التدرج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع». لذلك فإنه يفسر كثيراً من مظاهر التقدم والتطور عند البشر بأسباب لا علاقة لها بالبيئة... والذي يوضح موقف ابن خلدون في هذا الأمر هو تأكيده على أهمية عامل محدد من العوامل المؤثرة على العمران الحضاري، عندما ينظر إليه في معزل عن غيره من العوامل. أما ما يحدث في الواقع فهو أن حضارة أي مجتمع تتأثر في الوقت نفسه بعدد من العوامل الطبيعية والسياسية والاقتصادية

1- جغرافية العالم الإسلامي، عبد علي الخفاف، ص16.

والاجتماعية، ويتم ذلك بصورة متداخلة وحيوية... والذي يقرأ كتاب المقدمة كلّه بقدر التآني والتأمل سيلاحظ أن المؤلف يريد من القارئ أن يوقن بأن المقدمة هي كتاب في العمران البشري أو الحضارة، وأن العوامل التي تؤثر في هذه الحضارة متنوعة منها: الإقليم، والسياسة، والدين، والتعليم، والاقتصاد، والعادات والتقاليد»<sup>1</sup>.

لقد نجح ابن خلدون في كتابة أول عمل علمي عمّا يسمى بالجغرافيا الاجتماعية، وهي من فروع الجغرافيا البشرية، وتدرس طبيعة انتشار المجتمعات على الأرض، وأثر الظروف الطبيعية؛ كالتربة والمناخ والماء على الناس وعاداتهم وأخلاقهم وصنائعهم، وكذا ما يتعلق بالتوزيع السكاني في المدن والقرى، وغير ذلك مما تقرأه مفصلاً في المقدمة.

### من الجغرافيا السياسية لشعوب الإسلام عند ابن خلدون

يرجع المختصون الكتابات الأولى للجغرافيا السياسية إلى بعض أفكار الصينيين في الإستراتيجية، ككتاب فن الحرب، وإلى اليونان، خاصة أرسطو.

ثم جاء ابن خلدون، فطوّر أفكاراً مهمة في هذا الحقل، من أهمها تشبيهه للدولة بالإنسان، وأن للدولة والحضارة أعماراً كما للأشخاص؛ فتولد، ثم يشهد عودها، ثم تشيخ فتموت. وأول إنذار بانتهاء الدولة عند ابن خلدون هو انقسامها على نفسها، يقول: «اعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها... وقد ينتهي الانقسام إلى أكثر من

1- مقال رؤية العالم عند ابن خلدون، لفتحي حسن ملكاوي، ورقة قدمت إلى ندوة «البعد الديني ومنزلته في تجربة ابن خلدون الفكرية» التي نظمتها جامعة الزيتونة التونسية بمدينة تونس في فبراير 2006م، ص21-22.

دولتين وثلاثة...»<sup>1</sup>. وكلام ابن خلدون عن الدولة وشؤونها كثير جداً، بل هو أهم نظرياته، وقد دُرست بما فيه الكفاية.

ولابن خلدون تأملات كثيرة في أدوار بعض الشعوب الإسلامية الكبيرة، فهو مثلاً سجل بعض الظواهر السلبية عند العرب، خاصة في آخر الباب الثاني من الكتاب الأول، فوضع فصلاً بهذه العناوين: في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب. فصل في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك...<sup>2</sup>.

وفي الواقع هذه الملاحظات تعكس تراجع الدور العربي في تاريخ الإسلام لصالح شعوب تركية وفارسية وأمازيغية، وهذا تطور تاريخي خاص؛ لأن العرب الأوائل بنوا دولاً حقيقية وأنشؤوا حضارة عظيمة، حسبك أن تذكر الدولتين: الأموية، والعباسية في طورها الأول.

ومن تعليقات ابن خلدون لدور شعوب الترك والبربر والكرد في التاريخ الإسلامي: كونها وحشية. وهذا في الفصل الحادي والعشرين: في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع. فهذه الأمم لها قدرة على محاربة غيرها من الشعوب والدول، وكذلك لها ميل للهجرة والتنقل، «فلهذا لا يقتصرون على مَلَكَة قطرهم وما جاورهم من البلاد، ولا يقفون عند حدود أفقهم، بل يَطْفِرُونَ إلى الأقاليم البعيدة ويتغلبون على الأمم النائية»<sup>3</sup>.

ومن الملاحظات الجيوسياسية لابن خلدون أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط<sup>4</sup>، وهذه ملاحظة صحيحة، وهي تفسر لماذا تعربت مناطق

1- المقدمة، الفصل 45، الباب 3، ص311-312.

2- المقدمة، ص158، 160..

3- المقدمة، ص154.

4- المقدمة، الفصل 25 من الباب الثاني، ص158.

السهول في العالم العربي، بينما تأخرت مناطق الجبال في التعرّب، أو لم تتعرب إلا قليلاً، كحال المناطق الجبلية بالمغرب والجزائر وجبال الأكراد. لكن الملاحظة عامة، أعني أنه بالنسبة لأي فاتح عسكري تكون السيطرة على السهول أسهل، لذلك اقتصر الرومان في شمال إفريقيا على التحكم في السهول الساحلية خاصة.

### الوضع السكاني وأثره على الاتساع الجغرافي للدول

ومن الملاحظات النافذة لابن خلدون في هذا الحقل ربطه للاتساع الجغرافي للدولة بمشروعيتها الدينية أو السياسية، فالإمبراطورية باعتبارها شكلاً من الملك العظيم - وهي باصطلاح ابن خلدون: الدول العامة - تحتاج لأساس معنوي غير القهر أو العصبية للحكم واستقراره<sup>1</sup>. لكن للدول - مهما كانت قوتها - حدود جغرافية لا تتعداها، بما في ذلك الإمبراطوريات. والتعليل هنا عند ابن خلدون ديموغرافي؛ إذ التوسع يحتاج لطاقات بشرية من الجنود والحاميات ومديري الشؤون العامة... وحين ينفذ هذا العدد تتوقف قدرة الدولة على التوسع. وبهذا يفسر ابن خلدون توقف الفتوحات الإسلامية، يقول: «وانظر أيضاً شأن العرب أول الإسلام: لما كانت عصائبهم موفورة كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق ومصر لأسرع وقت، ثم تجاوزوا ذلك إلى ما وراءه من السند والحبشة وإفريقية والمغرب، ثم إلى الأندلس. فلما تفرقوا حصصاً على الممالك والثغور ونزلوها حامية، ونفذ عددهم في تلك التوزيعات، أقصروا عن الفتوحات بعد، وانتهى أمر الإسلام، ولم يتجاوز تلك الحدود، ومنها تراجعَت الدولة حتى تأذن الله بانقراضها. وكذا حال الدول من بعد ذلك، كل دولة على نسبة القائمين بها في القلة

1- المقدمة، الكتاب الأول، الباب الثالث، ص167.

والكثرة، وعند نفاد عددهم بالتوزيع، ينقطع لهم الفتح والاستيلاء: سُنَّة الله في خلقه»<sup>1</sup>. وهذا من أهم أسباب رفض الخليفة الراشدي عمر ابن الخطاب تقسيم أراضي العراق على الفاتحين العرب، أعني حتى لا تتوقف حركة الفتح باستقرار الجند بالأرض وتحولهم إلى فلاحين.

ويدرج ابن خلدون «قيادة الأساطيل» ضمن الوظائف السلطانية، ويشير في البداية إلى اختصاص إفريقية والمغرب بهذه الخطة

وقد لاحظ ابن خلدون أن من أهم القوى الدافعة لدول الإسلام في بداية نشأتها ولأول عهدها: النمو السكاني؛ ذلك أن «القَبِيلَ إذا حصل لهم الملك والترف، كثر التناسل والولد والعمومة، فكثرت العصابة، واستكثروا أيضاً من الموالي والصنائع وربييت أجيالهم في جو ذلك النعيم والرَّفْه، فازدادوا به عدداً إلى عددهم وقوة إلى قوتهم بسبب كثرة العصاب حينئذ بكثرة العدد»<sup>2</sup>.

لهذا وغيره عقد ابن خلدون الفصل الثامن: في أن عظم الدولة واتساع سلطانها وطول أمدتها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة؛ فقد كانت الدولة الفاطمية أطول عمراً وأوسع أرضاً؛ لأن عصبيتها من قبائل كتامة كبيرة جداً، ثم كان الموحدون أقل منهم؛ لأن قبيلة مسمودة أقل سكاناً، ثم جاء دور قبائل زناتة الأقل عدداً فكانت دولتهم أصغر... وهكذا<sup>3</sup>.

لكن عبقرية صاحبنا تآبى أن تترك هذه الحقيقة دون قيد مهم استقره كعادته من تأمل وقائع التاريخ، لا من التفلسف النظري المجرد

1- المقدمة، ص172.

2- المقدمة، الفصل 16، ص184.

3- المقدمة، ص173.

على طريقة اليونان، فوضح أن الكثرة السكانية قد لا تكون ميزة تتيح التوسع إذا لم تكن متجانسة؛ بل ربما تغدو خطراً على استقرار الدولة وتماسكها، وهذا موضوع الفصل التاسع: «في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلّ أن تستحكم فيها دولة». وهذا شأن بلاد المغرب لكثرة قبائل البربر وتفرق عصبياها؛ بينما الشام ومصر والأندلس أهل مدن وأمصار: إذا غلبوا جنحوا للدعة والمسالمة<sup>1</sup>.

### الهجرات البشرية ودورها في تشكيل الدول الإسلامية

كان للهجرات العربية دور مهم في تاريخ الإسلام في صناعة الجغرافيا السياسية للعالم. لقد مثل موقع الجزيرة العربية وما حوالها ممراً بين القارات الثلاث، أو بين الشرق والغرب، مما شجع العرب - خاصة بعد الإسلام - على التجارة والملاحة. لذلك انتشر العرب في مناطق كثيرة، ووصلوا حتى جنوب الصين والملايو خاصة جاوة، وإلى شرق إفريقيا، وإفريقيا الصحراوية<sup>2</sup>.

ويشير ابن خلدون إلى هذه الحقيقة مراراً، في المقدمة وفي التاريخ، من ذلك حديثه عن الآثار المتناقضة لقدم قبائل بني هلال وبني سليم على بلاد المغرب.

### ابن خلدون يتأمل البحر ومكانته في التاريخ الإسلامي

يتصل العالم الإسلامي بستة بحار، وأساس الكتلة المائية يتشكل على هيئة حرف Z اللاتيني حيث امتداد البحر المتوسط والبحر العربي والبحر الأحمر، ثم ترتبط هذه الكتلة بالمحيط الهندي في الشرق

1- المقدمة، ص174 إلى 176.

2- جغرافية العالم الإسلامي، لعبد علي الخفاف، ص17 إلى 22.



وبالأطلسي في الغرب. وهذا يؤهل المنطقة لأن تكون قوة بحرية هائلة<sup>1</sup>. وكذلك كان العالم الإسلامي الوسيط، كما أوضحه ابن خلدون. ويرى بيكار - المختص بالتاريخ البحري لغرب حوض البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط - أن الصفحات التي كتبها ابن خلدون في الموضوع هي أكثر ما وصلنا دقةً وجمعاً وتركيباً من مؤرخ عاصر بعض مراحل التاريخ البحري للعالم الإسلامي<sup>2</sup>.

ويدرج ابن خلدون «قيادة الأساطيل» ضمن الوظائف السلطانية<sup>3</sup>، ويشير في البداية إلى اختصاص إفريقية والمغرب بهذه الخطة، ويعلل ذلك باتصال البلاد بالبحر الرومي، إضافة إلى أن سكان سواحل هذا البحر اعتادوا ركوب البحر ومهروا فيه في الحرب والسلم.

ويرى ابن خلدون أنه لا توجد فروق بين القوة البرية والقوة البحرية، فالدولة تمر أيضاً في عالم البحر بمراحل النشأة ثم الشدة ثم الضعف: في البداية بناء البحرية، وهو ما تمّ في العهد الإسلامي الأول، ثم تأتي مرحلة السيطرة الإسلامية على البحر في عهد الخلافة الكبرى الأموية والفاطمية، والمرحلة الثالثة شهدت تراجعاً متواصلًا في القوة البحرية للمسلمين لصالح اللاتين.

هكذا استهل ابن خلدون الفصل بالحديث عن بدايات اتصال الدولة الإسلامية بالبحر في عهد عمر ومعاوية، وكيف تردد العرب في ركوب البحر لبدأوتهم، فلما استقر الملك لهم وملكوا الأمم

1- جغرافية العالم الإسلامي، ص13، 26.

2- ضمن مداخلات ندوة بيت الحكمة، 13 إلى 18 مارس 2006، بتونس

Ibn Khaldun, le pouvoir musulman et la Mediteranee, par Christophe Picard.

3- راجع: الفصل 34، من الباب الثالث من الكتاب الأول.

البحرية تعلموا ركوب البحر فأنشؤوا الأساطيل والمرافئ وصاروا أمة بحرية.

ويتوقف صاحبنا عند أبرز دول الإسلام التي كانت لها قوة بحرية، خاصة بالغرب الإسلامي، وهم: العبيديون أو الفاطميون، والأغالبة بإفريقية، والأمويون بالأندلس خاصة أيام عبد الرحمن الناصر، وبالشرق يذكر الأمويين بالشام خاصة. وهذه فترة السيادة البحرية لدول الإسلام. يقول ابن خلدون: «كان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم»<sup>1</sup>، وفي هذه الفترة لم يكن لأوروبا إلا بعض الساحل الشمالي الشرقي.

ويمتدح ابن خلدون عمل الأمويين حين سيطروا على الإنشاءات البحرية للبيزنطيين بعكا، وأسسوا أول أسطول بأمر من معاوية. والاسم الآخر الذي يذكره هو الخليفة عبد الملك، والسياسة البحرية هنا هي تأسيس مصانع السفن. وفي الأندلس يشير ابن خلدون لعبد الرحمن الناصر الذي بنى أسطولاً بحرياً قوياً بقاعدة ألمرية. وبالنسبة للفاطميين فإن عاصمتهم كانت قاعدة بحرية، وهي المهديّة. وآخر قوة بحرية يذكرها ابن خلدون هي للموحدين بالغرب الإسلامي. وقد هدى العقل الاستقرائي والعملية الذي كان يملكه ابن خلدون.. هداه إلى أن لاحظ أن بناء القوى البحرية في حضارتنا كانوا في الغالب مؤسسي دول الخلافة؛ أي أن امتلاك قوة بحرية هو بالدرجة الأولى قرار سياسي بالنسبة للدول الكبيرة التي تتمتع بإمكانيات بشرية ومادية

1- المقدمة، ص 269.

معتبرة. لذلك حين لاحظ ابن خلدون أن القوة البحرية الإسلامية في الشرق وهنت منذ وقت مبكر نسبياً؛ إذ «ضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام إلى أن انقطع، ولم يعتنوا بشيء من أمره لهذا بعد أن كان لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد»<sup>1</sup>، فإنّ علة فقدان السيادة البحرية عنده هي: «عدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده لشأن الأساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة»<sup>2</sup>.

هكذا انتقلت السيادة البحرية للدولة الإسلامية من الشرق إلى الغرب، «فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك، وبقيت بإفريقية والمغرب، فصارت مختصة بها، وكان الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد موفور الأساطيل، ثابت القوة، لم يتحيّفه عدو ولا كانت لهم به كربة»<sup>3</sup>.

وهنا يشير ابن خلدون لأوج القوة البحرية الإسلامية في هذه الفترة في عهد الموحيدين، خاصة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الذي «انتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد، فيما عهدناه»<sup>4</sup>. وهذا ما يفسر استنجاد صلاح الدين الأيوبي بالبحرية الموحدية في مواجهة الصليبيين.

بعد التفوق الموحيدي، جاء بنو مرين الذين كانت قوتهم البحرية أقل؛ لكنها حافظت على التوازن البحري مع الممالك المسيحية بحيث كانت القوتان متساويتين<sup>5</sup>، «ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في

1- المقدمة، ص270.

2- المقدمة، ص271.

3- المقدمة، ص270.

4- المقدمة، ص270.

5- المقدمة، ص271.

الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية، ورجع النصرى فيه إلى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه.. وصار المسلمون فيه كالأجانب»<sup>1</sup>.

والأمر الآخر المهم في تفكير ابن خلدون، والذي يشير إليه بيكار، هو أنه لا يرى هذا التراجع بسبب تفوق شعوب جنوب أوروبا المطللة على البحر وإتقانهم لركوب البحر بالفطرة، خاصة من أهل البندقية وجنوة، كما كان يعتقد أحياناً؛ فالقوة البحرية عند صاحبنا لا تختص بشعب أو بلاد معينين؛ بل بالدولة نفسها: هل لها سياسة بحرية أم لا، أي هل تملك إرادة بناء قوة بحرية؟ ثم هل تتوفر على الخبرة بالبحر والتي يخرتها البحارة والصانعون وسائر الرجال الذين لهم علاقة بالبحر؟ وهذا وعي متقدم بالموضوع.

### الجزر وأهميتها الإستراتيجية

كان لابن خلدون معرفة بالجزر واهتمام بها، فهو يقول مثلاً في ثانيا حديثه عن البحر الرومي والشامي: «وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل أقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية»<sup>2</sup>؛ ذلك لأن ابن خلدون يرى أن لجزر البحر المتوسط أهمية إستراتيجية استثنائية، وأن فقد المسلمين لها بالتدريج ساعد كثيراً على تراجع قوتهم، فهي نوع من خط الدفاع الأول عن أراضي اليابسة. ولذلك لما سيطر المسلمون على البحر المتوسط «ملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل

1- المقدمة، ص271.

2- المقدمة الثانية، ص49.

ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرس...»<sup>1</sup>. وبالمقابل حين ضعفت البحرية الإسلامية بالشرق الإسلامي، خسروا أول ما خسروا هذه الجزر؛ حيث «مدّ النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية وإقريطش ومالطة فملكوها»<sup>2</sup>، ثم حين ضعفت بحرية الغرب الإسلامي أيضاً خسروا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي<sup>3</sup>.

### أصالة ابن خلدون في الحقل الجغرافي

ونظراً لأهمية هذه الآراء الخلدونية، فقد اعتبر الكثيرون أن ابن خلدون هو مؤسس الجغرافية البشرية

عطاء ابن خلدون كثير ومتنوع، لكن الدارسين يتفقون على أن الإبداع الأهم لابن خلدون كان في حقل العمران الإنساني وتفسير تاريخ الدول الإسلامية. يقول الأستاذ ملكاوي: «مهما اختلف الباحثون في تقويم جوانب العبقرية التي تمثلها ابن خلدون، فإنهم يتفقون على أنّ محور إبداعه كان في النظرية التاريخية الاجتماعية، أو نظرية العمران، وهي بإيجاز شديد رؤية كلية تستهدف فهم الكيفية التي يقوم بها الاجتماع البشري ويتطور المجتمع الإنساني من مرحلة إلى ما بعدها من مراحل، ومن حالة حضارية إلى حالة أخرى، وبيان العوامل المؤثرة في نشأة الدول وقيام الحضارات وانهارها، مع اهتمام شديد بالعلاقات السببية والقوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية»<sup>4</sup>.

1- المقدمة، ص269.

2- المقدمة، ص269.

3- المقدمة، ص271.

4- مقال رؤية العالم عند ابن خلدون، لفتحي حسن ملكاوي، ص15.

أما عن إبداعه في حقل الجغرافيا خاصة، فيمكننا القول مع عبد الفتاح وهيبه: إن ابن خلدون «رغم أنه لم يكن جغرافياً، ففي مقدمته أفكار جديدة حول العلاقة بين البيئة والإنسان وجغرافية العمران والجغرافية الاقتصادية لم تعرف أوروبا مثلها إلا بعد مضي عدة قرون»<sup>1</sup>. وكذلك مع كراتشكوفسكي حين كتب: «كل هذه المسائل التي تبحث في أثر الإقليم والوسط الجغرافي في حياة البشر لم يحدث أن أخضعت قبل ابن خلدون لفحص منظم، فهو في هذا المضمار يجب أن يعدّ مجدداً بلا ريب. ومثل أفكاره هذه لم تظهر في أوروبا إلا بعد مضي عدة قرون، وذلك ابتداء من مونتسكيو»<sup>2</sup>. ومن جهة أخرى لا بد أن نذكر أيضاً ضمن إبداعاته: تأملاته في التاريخ البحري للمسلمين.

ونظراً لأهمية هذه الآراء الخلدونية، فقد اعتبر الكثيرون أن ابن خلدون هو مؤسس الجغرافية البشرية؛ بل اعتبره إيف لاکوست الأب الفعلي للجغرافيا<sup>3</sup>. يقول الأستاذ الدفاع: «يجمع المؤرخون والجغرافيون على أن ابن خلدون هو أول من عالج بمنهج علمي واضح ظواهر البيئة وآثارها الإيجابية والسلبية في حياة الشعوب من حيث نظمهم السياسية والاقتصادية والعلمية والأخلاقية والعقلية»<sup>4</sup>.

1- مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، عبد الفتاح محمد وهيبه، منشورات جامعة بيروت العربية، لبنان، ط 1، 1979، ص 28.

2- تاريخ الأدب الجغرافي، ص 444.

3- Laurent Testot: Relire Ibn Khaldûn. In: Sciences humaines, No 179, Fevrier 2007.

4- رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، علي بن عبد الله الدفاع، ص 217.

## الاستعمار الفرنسي يستعين بالمقدمة لفهم التاريخ والجغرافيا

لا عجب إذن أن نجد أن الفرنسيين استعانوا بالمقدمة على استعمار شمال إفريقيا، فابن خلدون هو أهم من فكّر وتأمّل في الصيرورة التاريخية لهذه المنطقة، يكفي أن نذكر أنه أكبر مؤرخ للأمازيغ، وهم الشعب الذي سكن هذه البلاد الواسعة التي أراد الفرنسيون استعمارها، فسعوا إلى فهم تاريخها البشري والسياسي من خلال المقدمة. لذلك ترجم الفرنسيون هذا العمل العظيم في زمن باكر، وقام بهذا العمل نوئيل دي فيرجيه، وتم نشر الترجمة بباريس سنة 1841، أي قبل ظهور الطبعة العربية الأولى ببولاق، وقبل ظهور أول ترجمة جزئية للمقدمة إلى الإنجليزية.

ثم في سنة 1847 صدرت طبعة أخرى بعناية البارون دسلان، وهي أفضل وأصح، وطبعت بأمر من وزير الحرب الفرنسي، وقد كان الدافع في ذلك هو الرغبة في التعرف على منطقة الغرب الإسلامي لاستعمارها والسيطرة عليها.

بل حتى في أيامنا هذه يرى بعض الباحثين الغربيين - مثل غابريال كروس - أن المقدمة تفيد في فهم الأنساق والبنى الاجتماعية العميقة للمجتمعات العربية / الإسلامية المعاصرة<sup>1</sup>.

وعموماً يحتاج موضوع تعرف أوروبا على المقدمة لدراسة مستقلة، أتمنى أن يقوم بها المختصون في ابن خلدون أو في التراث الاستشراقي بصفة عامة.



## الخاتمة:

تراجع الإبداع الجغرافي للمسلمين بعد القرن الخامس، وكان ذلك ترجمة لبداية التراجع الحضاري العام الذي شهدته المنطقة. يقول الأستاذ الدفاع: «وصل علماء العرب والمسلمين في العلوم الجغرافية إلى القمة في القرنين الثالث والرابع الهجريين... ومما يؤسف له أنه في القرن السادس الهجري انتشرت الفوضى واهتزت السُّلطة في الدولة الإسلامية، لذا وقف تقريباً عصر الاكتشافات الجغرافية، فاقصر علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية على الاقتباس من مصنّفات السابقين لهم. ومن هنا بدأ عصر المعاجم والموسوعات»<sup>1</sup>. وهنا يظهر تميّز ابن خلدون، فهو أعاد التفكير في الجغرافيا وعلاقتها بالتاريخ والحضارة ضمن أطر معرفية ومنهجية جديدة كل الجدة، لذلك يجب اعتباره من القمم العلمية التي عرفها تاريخنا العربي / الإسلامي في مجال الجغرافيا.

1- رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، علي الدفاع، ص59.